مؤلّفات المركز، 2022، ص. 109-131

الآخر في فكر الأمير عبد القادر الجزائري : دراسة في فتنة دمشق 1860م

أمجد أحمد الزغبي [1]

مقدّمة

الدخول في جدلية الأنا والآخر تفرض نفسها وإيقاعها في معرفة شخصية عالمية-إنسانية الطابع إسلامية المنهج عربية الهوى جزائرية المنبت. فبحث الأنا والآخر لدى الأمير عبد القادر كمن يغوص في محيط يتسع كلما أبحرت فيه؛ وكأنك كلما اقتربت تشعر أنك تصاب بالدوار : فشخصية البطل المجاهد، السياسي، الشاعر، المتصوف، والمهاجر. تنتظم فيها الأنا باتساق ويتسع فيها الآخر. فنمو شخصية الأمير -الأنا- تتقولب في النشأة الأولى، فالأب يجد فيه تميزا وتوافقا مع ذاته يدفعه نحو الاهتمام به دونا عن أخوته الآخرين، هذا الاهتمام مع سلامة الفطرة توصله ليكون حافظا لكتاب الله في سن الثانية عشرة ودارسا لأصول الشريعة والدين الحنيف، وفي سن الخامسة عشرة يتزوج من ابنة عمه، وفي السابعة عشرة من عمره اشتهر بشدة البأس وقوة البدن والفروسية (محمد عبد القادر الجزائري، 1964 ؛ شارل، 1982م). فالفضائل الأفلاطونية الأربعة تجتمع لديه : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ؛ فالذكاء العقلاني وبداية تشكل الحكيم واستقرار المفهوم الديني الأخلاقي لديه نضج وتطور بتطور دور أميرنا عبر سني حياته (ديلو، 2003).

كان الآخر يتجلى اتضاحا في نسق الذات؛ فشخصية الأب محي الدين طليعية في مجتمع سادت فيه ملامح الوهن والضعف والفساد السياسي، فكان لابد من موقف مناهض للظلم والاستبداد، فيوضع الأب والابن تحت الإقامة الجبرية 1823-1825م من قبل سلطة

[1] Université de Philadelphie-Jordanie, Faculté des Sciences Humaines, Département des Lettres et Arts Humaines, Jordanie.

حاكم وهران التركي "حسن داي" لتكون فرصة الابن لينهل من مدرسة والده. فتأتي رحلة الحج والعلم لمدة سنتين فرصة يحظى بها برفقة والده، وسبيلا جديدا في التعرف على ذاته واكتشاف عوالم جديدة في العلوم والتجلي. في القاهرة يلتقي شخصية العصر "محمد علي باشا". ويبهره النسق الجديد في بناء الدولة والمدينة. فبعد رحلة الإيمان وتأدية الفروض والصلاة والسلام على رسول الله، تتجه أنظاره إلى حاضرة الدولة العربية دمشق بما تحمله من موروث عربي يعبق بنفحات الفلسفة الصوفية : ابن عربي والحلاج وعلماء المسجد الأموي، ودمشق أقدم عاصمة في التاريخ ليقيم له ما شاء أن يقيم. لتكون بغداد حاضرة بني العباس العاصمة الإسلامية الطابع بتعدد مورثها العرقي والحضاري، محطته مجتمعا ومتلقيا فيها للمعرفة على يد نخبة من علماء العصر ؛ ويلبس هناك أبوه الخرقة القادرية من نقيب الأشراف وسليل الدوحة المحمدية قراءة ومشافهة. ليعود الموكب العظيم ويستقبل استقبال الفاتحين وذلك سنة 1828م (محمد السيد الوزير، 1984م وتشرشل، 1974م).

كانت العودة أوبة أخرى إلى الانكفاء على معرفة الآخر الفلسفية، فخلال المرحلة ما قبل الاحتلال الفرنسي ينكب على قراءة أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ودراسة الموروث العربي الفلسفي، ودراسة اللغة والجغرافيا والتاريخ، وكذلك تبحره في التصوف بتأثير والده ورحلته الأخيرة التي عرفته على محي الدين ابن عربي، وهو الأكثر تأثرا به لتجعله فيلسوفا متصوفا، ولكن على طريقته الذاتية. هذه النظرة سوف تنعكس صورة من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي في كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، منتهيا إلى أن الديانات الثلاث تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية، بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب[1].

دفعت الأحداث متسارعة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر يوم 5تموز/يوليو 1830م إلى توحيد الكلمة والبيعة الخاصة للأمير "بيعة شجرة الدرارة" يوم 27 تشرين أول/نوفمبر 1832م، جاء فيها "الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين، لتصان به النفوس والأموال، وتجتمع كلمة المسلمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله

[1] الوزير، مصدر سابق، صص. 20- 21 ؛ عبد القادر شرشار، (2011م). شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر: ترجمة أشهر مؤلفات الأمير عبد القدر من قبل الباحث الفرنسي جوستاف دوجا، **إنسانيات : المجلة الجزائرية في الانثربولوجيا والعلوم الاجتماعية**، (54)،19-31، نسخة الكترونية insaniyat. revues. org/5976

وأصحابه أجمعين، وبعد : لقد قال عليه الصلاة والسلام : إن الله يحمي بالسلطان مالا يحمي بالقرآن، هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل، ونضب فيه الجهل، فما بالك بالزمان الذي كثر فيه الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر له أثر حتى أن أعداء الله الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام، وتشتت الكلمة، واختل النظام، ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا. ولا يكون للجهاد دليلا، فلجأوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين بن مختار بكماله وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار، فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة، واعتذر إليهم لكبر سنه. فأتاه بعض من علماء غريس، وهم من الصالحين، فقالوا له : "إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصر دين الله، ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر، ووافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم، وشجاعة وعقل سليم، فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه" (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، صص. 98-99).

وكانت البيعة العامة للأمير يوم 27 شباط/فبراير 1833م ليكون ذاتا بذاته فهو غير راغب بالسلطة كما دلت الحوادث.

> " ... قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على كتاب الله والسنة فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، ابن مولانا السيد محي الدين، فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، صص. 101-102)

وتتجلى شخصية الآخر العدو الواضح الذي يحتل الأرض ويهلك النسل والحرث، ويقهر البلاد والعباد ؛ هذا الفهم وهذه المعرفة الكاملة بالذات والتي أوصلته إلى رأس هرم السلطة : علم وخلق وفروسية ومواقف خطها قبل أن يكون في هرمها الأعلى، وبالتالي وجب عليه السباق مع الزمن في بناء الدولة العصرية القائمة على جيش منظم يقود الجهاد، وإدارة صارمة وعادلة، ونظام ضريبي دقيق قادر على مواجهة المتطلبات الداخلية، وإقامة صارمة للعدل الذي هو أساس الملك ؛ وهذا تطلب منه الاهتمام بالتعليم وإقامة علاقات بالخارج، والانفتاح على روح العصر والاتصال بالأصدقاء الذين من الممكن أن يهتموا لثورته، ويعينوه على مهمته. كل ذلك أساسه فهم عميق لروح الدين وحاجات العصر.

فعمل الأمير على التخلص من أعدائه بلا هوادة وقطع صلته نهائيا بالإدارة العثمانية وبقاياها. فكان الدبلوماسي الفذ الذي فاوض إذا لزمت المفاوضة مع العدو، فهو لا يخون ولا يغدر، فالاتفاق وإن كان في غير صالحه لا ينقضه حتى يقوم الآخر بذلك. واستعان بالأجانب حين رأى أن ذلك ضروري لصيانة الدولة واستمرارها. فهو "الناسك الحاكم" أو "الفيلسوف الحاكم" (تشرشل، 1974)[2].

فالناسك الحاكم قدم نموذجا فريدا في القدوة، فهو لم يلبس أحسن مما يلبس القوم، ولم يأكل أحسن مما يأكلون، تراه تصدق كلمات شعره فعله فهو الذي يتقدم الجند في المعركة، وهو الذي يسهر على راحة رعيته ؛ فقد قال لزوجته بعد أن تولى الإمارة التي أختار فيها لقب أمير، ولم يختر لقب خليفة أو سلطان حرصا منه على الآخر الخليفة والسلطان. قال : "وإن أبيت إلاّ تطلبي حقك فأمرك بيدك، لأني قد تحملت ما يشغلني عنك ... ." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ص. 97)

كانت خطوات الأمير في بناء الدولة خطوات الواثق العارف، فهو ينتزع الاعتراف به من فرنسا كأمير على البلاد بالرغم من المحاولات التي قامت بها فرنسا لثني الأمير عن عزمه بالمال عارضة عليه مليون فرنك، ولكنه يأبى قائلا : "عرض علي الماريشال بيجو Bugeaud بالواسطة مليونا لأترك السلاح فلم أقبل ذلك منه محافظة على عهدي وديني" (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ص. 14). فكانت معاهدة دي ميشيل 28شباط / فبراير / 1834 م، انتصارا باهرا للأمير في مجال الدبلوماسية فقد نصت على : الاعتراف به كأمير للمؤمنين، وتبادل القناصل فيرسل الأمير ثلاثة قناصل إلى الموانئ الرئيسة وهي : وهران وأرزيو ومستغانم، أما الفرنسيون فيرسلون قنصلا واحد إلى معسكر عاصمة الأمير. كما نصت المعاهدة على تبادل الأسرى، وحرية العمل بالدين الإسلامي، وحرية التجارة، وضرورة تبادل المجرمين الهاربين. وهنا لابد من الإشارة إلى قدرة الأمير على توظيف الجميع في سبيل قضيته العادلة، فهو يثق بالآخر الداخلي الشريك عندما عين ابن دوران وهو يهودي قنصلا له في مدينة الجزائر (تشرشل، 1974، ص. 17).

وهنا أورد نصا يوافق ما تم الإشارة له أعلاه، ويتعلق برجل الحرب والسياسة في وقت واحد حول تفسير وجدل معاهدة تفنة 1837م ؛ فعندما قام الأمير بتعيين المسيو كزماني وهو إيطالي ووكيل للولايات المتحدة في الجزائر بعث له :

[2] تشرشل، مصدر سابق، صص. 18-19.

"السلام على من اتبع الهدى ... بلغنا أنك من أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة ... كتبنا لك هذا إعلاما بأن تكون عند الفرنسيين وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها، وتجري أمورنا معهم على نظرك، وتعرفنا بما هو الأصلح لنا معهم، والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به ... إننا نحب الخير والهناء والعافية والأمن في سائر الوطن" (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م، ج1، ص. 216).

عارضت فرنسا هذا التعيين خوفا من تزايد نفوذ الولايات المتحدة من جهة، ورغبة من الجنرال الفرنسي في كسر كلمة الأمير وجس نبضه فيما يتعلق بمهادنة فرنسا التي وقع معها الاتفاق وإضعاف لمركز الأمير ؛ إلاّ أن رد الأمير جاء قاسيا، قائلا :

> "... ليس لفرنسا حق أن تجبرنا على تعيين وكيل ضد إرادتنا وميلنا لأن ذلك منوط بنا ... هذا يناقض مبادئ الشرف الذي يجب أن يراعى في كل الأعمال... فإن كنتم استحسنتم خرق الشروط وإبطال المعاهدة، فنحن مع عدم الميل إلى ذلك نجيبكم، ولا يخفى أن البغي وخيم ونتيجة الشر تعود على البادي... ." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م، ج1، ص. 217)

ومعاهدة تافنة 1837م التي لم يسرِ العمل بها سوى سنتين وخمسة أشهر، تعتبر حلقة هامة في تاريخ الجزائر لسببين أولهما : أنها النص الوحيد المعترف به من الحكومة الفرنسية كاتفاق رسمي بينها وبين حكومة جزائرية في عهد الاحتلال. وثانيهما: لأن نصوص المعاهدة كانت مثار جدل بين الطرفين. أضف إلى ما تقدم أن السنتين اللتين تبعتا معاهدة تافنة قد أتاحتا للأمير التفرغ لمقاومة عصيان القبائل والطرق الصوفية، إضافة إلى بسط سيطرته على ثلثي الجزائر، بحيث أصبح الفرنسيون محصورين في وهران والجزائر وفي جزء من بيلكيه قسنطينة (خير بك، 2012، ص. 425).

غير أن هذه المعاهدة قد تصدعت بسبب إصرار الفرنسيين السيطرة على قسنطينة إلى جانب توسع الأمير نفسه نحوها، التي كبد فيها الأمير عبد القادر الفرنسيين خسائر فادحة، بعد أن دحرهم عن مناطق كثيرة. مما دفع بعض النواب الفرنسيين للقول عام 1841م : "إن افريقية هي الخراب أثناء السلم والضعف أثناء الحرب، إن افريقية شر وجنون ...". ومع تعيين الجنرال بيجو الذي كان يطرح فكرة الاحتلال الكامل للجزائر معتبرا أن "الاحتلال الناقص وهم، إن احتلال الجزائر خطأ ولكن ما دمتم ترغبون فيه فينبغي أن تعملوه بقوة...". بهذه النبرة وبطريقة وحشية "سياسة الأرض المحروقة" من تدمير وحرق

وقتل وزرع للرعب، أدت إلى سيطرة الجنرال على معظم الأراضي التي كانت تحت سيطرة الأمير مما اضطره إلى اللجوء إلى مراكش، حيث لقي الدعم والتأييد والترحيب مديرا عملياته من هناك. وهنا لابد من الإشارة إلى الحنكة والذكاء من قبل الأمير، فهو لم يطرح نفسه منافسا لأمير المؤمنين في مراكش ولم ينازعه، فالمشروع الذي يتزعمه الأمير مشروع تحرر وطني (خير بك، 2012، ص. 426).

اتفاق طنجة سنة 1844م جعل من الأمير خارجا عن القانون؛ فأجبر الأمير على العودة إلى الجزائر محرزا انتصارات عظيمة على الفرنسيين ؛ فتستخدم فرنسا كل قوتها مرة أخرى مجبرة الأمير على العودة مرة أخرى إلى مراكش، وبالرغم من حذر الأمير في تعاطيه مع سلطان مراكش إلا أن فكرة شخص الأمير كان يشكل شكوكا عملت على تغذيتها القوى الاستعمارية وبخاصة فرنسا وانجلترا، تتعلق برغبة الأمير بالاستقلال بالريف وخلع أمير المؤمنين سلطان مراكش ؛ فصمم السلطان عبد الرحمن على إخراج الأمير بالقوة، فأرسل قوة كبيرة بقيادة اثنين من أولاده، فخسر الأمير معركته الأولى مع الجيش المراكشي، فالحلقة تضيق والمسيرة تشارف على البدء من جديد في أفق آخر (خير بك، 2012، صص. 427-426).

إذا كانت المفاوضة مع العدو والصلح "جائز فيما إذا كان العدو مطلوبا لأن الجهاد فرض كفاية، ولا يجوز إذا كان العدو طالبا لأن الجهاد فرض عين ؛ إلا إذا دعت إليه إبقاء على المسلمين وبلادهم فإنه يجوز والضرورة لها أحكام، وقد يرى الشاهد مالا يراه الغائب" (محمد عبد القادر الجزائري، ص. 213). فما بالك في عدو مالك للأمر وقريب متجهم؛ فتكون المفاوضة على الأمر الذي لابد منه ضمن التصور السابق للأمير، والذي مارسه الأمير في اتفاقيات سابقة مع العدو الذي بكل قوته لم ينزع منه اعترافا يشر إلى الضم الفرنسي للجزائر. فالاستسلام هو ذل واستصغار، وهو مغاير حتى لمفهوم الأسر الذي هو بالإكراه والقوة، وإنما كان برضا الأمير. فعندما اشتد الأمر على الأمير جمع خاصته وذويه وقال : "يا قوم إن الأحوال كما ترون والأخبار كما تسمعون... أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد ... ما ينيف على سبعة عشر سنة... ولا زلت أرى المنية ولا الدنية..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م، ص. 324).

فما هي من شيم الأمير الاستسلام، إنما هو سهم رماه وعرض قدمه للفرنسيين استمر ثلاثة أيام أبدى فيها رغبته بالخروج من الجزائر. فما كان من الجنرال الفرنسي لامورسير إلاّ

أن أرسل للأمير كتابا أبيض مختوما بختمه يطلب منه الأمير أن يضع ما يشاء من الشروط، فجرى الاتفاق على أن يخرج الأمير إلى عكا أو الإسكندرية، وأن لا يتعرضوا لمن يريد السفر من الضباط والعساكر، والذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنا على نفسه وماله. ولما سار موكب الأمير مع الجنرال الفرنسي ووصل إلى الجزائر المدينة قال الأمير : "هذه الساعة التي قدُّر الله أن يكون ما نحن فيه الآن، وقد أخذت على الجنرال لامورسير عهدا وميثاقا فلا أخشى أن ينقضه ابن ملك فرنسا ..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964م، ص. 325). ومن الجدير ذكره في هذا المقام الرسالة التي بعث بها الأمير إلى لاموسير عندما تسلم وزارة الحرب أثناء أسره قال فيها "... إن كثيرا ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب وأجبرتني على التسليم وإلقاء السلاح، فينبغي لك أن توضح لهم القضية وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا... فإن وفيتم فإنكم تنالون فخرا كبيرا بين الأمم والدول، وإن نقضتم وألفتم فلا شك أنكم ترتكبون أمرا شنيعا يسقط به قدركم..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج1، ص. 16). ولكن الأخير يضيق في الأسر على الأمير خوفا وخشية على منصبه وعلى الحقيقة التي أشار لها الأمير.

الأمير من الأسر إلى دمشق

وثق الأمير بالفرنسيين الذين حملوه على أساس التزود بالمؤن على البارجة الفرنسية احمودة إلى ميناء طولون لتستكمل مسيرها بعد ذلك نحو الشرق، إلاّ أن حاكم طولون دخل عليه وقال له بأنه مأمور بأن يرافقه نحو برج لاملاك لحين ورود الأوامر من باريس. أحس الأمير بالخديعة وأن الأمر أكبر من ذلك ؛ فجاءه الكورنيل دوماس مندوبا عن الملك عارضا عليه الانتقال إلى باريس والإقامة فيها بما يليق، ومعتذرا عن السماح له بالسفر نحو الشرق فأجابه الأمير :

> "إني لا أقبل ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج... ومن عجيب ما يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم فجعلتموني أسيركم... وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم لا علي ..." فعرض عليه مرافقة إبراهيم باشا ابن محمد علي، فرد الأمير قائلا : "إبراهيم باشا يرى باريس... متنزها... أما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلاّ سجنا لي ولمن معي... ." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج1، صص. 5-6)

طال المقام بالأمير وبشعوره بغدر فرنسا، وكأنه هنا يدخل في عالم وكل أمره فيه لله ؛ وندم أشد الندم على تركه سلاحه، فقد كتب إلى ابن الملك معاتبا : "... من أكبر العار عليها غدرها بمن سلم نفسه إليها ... ولو كنا نعلم الحال يؤول إلى ما إليه آل لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال ..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964،ج2، ص. 6). فقيام الثورة الفرنسية ووصول الراديكاليين والليبراليين في شباط 1848م إلى السلطة نتيجة سياسية لرئيس الوزراء غيزو، فبسبب سياسته العسكرية وفرضه الرقابة الصارمة على الحركة الوطنية (الزعبي، 2010، ص. 138)، طرح مسألة الأمير من جديد ولكن بتشدد أكبر هذه المرة، وبتعرض الأمير وهو صابر على الأسر للمعاملة القاسية والمهينة، فجاءه الكورنيل أوليفيان عارضا أن الحكومة تخشى إن سمحت له بالسفر إلى وجهته أن ينقض عهده ويعود إلى الجزائر ويجدد الثورة. كان الأمير بحالة من اليأس فهو يعلم كيف ترك الجزائر بجور القريب قبل جور الغريب، وأنه ما عاد ولن يعود إلى ما بدأ به، وأنها مرحلة من حياته انتهت ولا يريد العودة لها. فما كان من أوليفان إلا أن طلب من الأمير أن يحلف على القرآن أن لا يعود لما كان عليه، وأن لا يدخل في عمل ضد مصالح فرنسا. فكتب الأمير كتابا جديدا أكد فيه على الاتفاق الذي تم ما بينه وبين لامورسير وابن الملك قائلا : "... وأن أمرتم بأن أقسم لكم بالقرآن العظيم أني لا أنقض لكم وعدا ولا أخلف لكم عهدا..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج2، ص. 10). وهنا يظهر مدى الانكسار الذي كان فيه الأمير، فما كان الأمير يملك من أمره شيئا فهو يقول صابرا متجلدا على ذلك(على لسان أبو الأسود الدؤلي):

تَعَـــوَّدتُ مَـــسَّ الضَـــرِّ حَتّـــى أَلِفتُـــهُ وَأَســـلَمَني طـــولُ الـــبَلاءِ إِلـــى الصَـــبرِ
(محمد عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1964، ج 2، ص. 13).

فقد خاطب دوماس عندما حاول أن يسرّي عن الأمير، أجابه بصرامة حزينة : "كيف يمكنك أن تعجب من أن ينهار صبري أمام عظمة نكبتي ؟ إن عائلتي وأتباعي في يأس. وإن والدتي المسنة ونساء بيتي ينتحبون ليلا نهارا، ولم أعد أحمل إليهم الأمل... وإنني أنا السبب في كل ما حل بهم من شقاء... ." (تشرشل، 1974، ص. 256)

وتمضي على الأمير محنة طويلة ومع العودة إلى النظام الملكي وعودة نابليون الثالث للحكم، تجتمع الحكومة الفرنسية برئاسة نابليون للتشاور حول قضية الأمير، وتختلف الآراء فأظهر نابليون ميله إلى صحة العهد ووجوب الوفاء به، فأيده الماريشال بيجو وخالفه الباقون، وكانوا أكثر عددا فلم يسع الرئيس إلا الموافقة، فيقوم الماريشال بيجو بإرسال

رسالة إلى الأمير يعرض فيها عليه البقاء في فرنسا"، وذلك بأن توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك، وتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة... والأراضي كبقية نبلاء فرنسا". ويجيبه الأمير برسالة حازمة جازمة قائلا : "لو جمعت فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا، وبين أن أكون حرا فقيرا معدما، لاخترت أن أكون حرا فقيرا، فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فإنه ليس عندي بعد هذا الخطاب جواب[3].

ظل الأمير على هذه الحال يعاني مر الأسر وذله، مذكرا في مراسلاته مع آسريه بالاتفاق الذي جرى معهم. وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من أكتوبر تشرين الأول سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة 16/أكتوبر/1852م، الثالث محرم سنة تسع وستين ومائتين 03/محرم1269هـ يزور نابليون الثالث الأمير في معتقل أمبواز ويسلمه وثيقة إطلاق سراحه قائلا له : "... إنكم قد جلبتم دقة نظري واستلزمتم محبتي بما اشتهرتم به من الخصال الحميدة والبسالة والشجاعة، وجميع ما أبرزتموه من أنواع المدافعة عن وطنكم، ولا أنظر إليكم بنظر أسير بل بضيف محترم ... ولذلك أفتخر بإطلاقك واثقا ثقة تامة بقولك". رد الأمير بأحسن مما قاله نابليون وقدم له والدته فيقبل البرنس الفرنسي يدها ويسألها الدعاء، ويدعو الأمير إلى باريس باحتفال عظيم (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج2، صص. 39-40). ومما لا شك فيه أن العلاقة والجميل الذي لن ينساه الأمير كان مقصودا من نابليون، فهو المستفيد من هذا كله، وبخاصة أن هذا التكريم كان برغبة تحسين صورة الدولة الفرنسية في أعين الجزائريين.

الأمير كان واعيا مدركا لما يقوم به "... إني أفعل ما أفعله وأترك ما أتركه بإرادتي"، وجدد الأمير قسمه"... وهل يتصور عاقل فضلا عن فاضل... أن أخونكم وأفعل شيئا ينافي معروفكم ؟ وكيف والمعروف رباط معلق بأعناق أهل المروءة..." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج2، ص. 40). وعندما قدم نابليون سيفا مرصعا للأمير قال له : " وأعلم أنني أقدم لك هذا السيف وأنا على يقين، بأنك لن تّجرده على فرنسا". فأجاب الأمير "إنني الآن ممن يستعمل القلم، لا ممن يستعمل السيف" (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ص. 40 ؛ بركات، 2013، ص. 24)، وعندما زار الأمير دار الطباعة الفرنساوية سئل عما رآه فقال :

[3] المصدر نفسه، صص. 263-264 ؛ محمد عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر**، (ج. 2)، ص. 27 ؛ فرعون حمو، فلسفة الاختلاف عند الأمير عبد القادر الجزائري(دراسة أنثروبولوجية) [مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، معهد الثقافة الشعبية، قسم الأنتروبولوجيا]. ص.25.

"رأيت البارحة صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع، وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك وتخرب دولهم وهم لا يشعرون." (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ج2، ص. 44)

سافر الأمير مودعا عهد السيف مستلا سيف القلم والموقف، متعرفا على آخر يعرف عنه ويتوق له من أمبوز إلى استانبول يوم 8 كانون ثاني/يناير 1853م، ويزور ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، ويلتقي مع شيخ الإسلام العلامة عارف حكمت، ويزور الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا، ويحظى بزيارة السلطان عبد المجيد ويمدحه بقصيدة طويلة. وبعد عشرة أيام يرحل الأمير إلى بروسة محل إقامته الجديد، ويعلل نفسه بأنها مثل ما قالوا تشبه تلمسان.

أمّـــا الْخيـــامُ فإنهـــا كخيـــامهم وأرى نســـاءَ الْحـــيّ غيْـــرَ نســـائها
(محمد عبـد القـادر الجزائـري، 1964، ص. 54)

جلس الأمير يعيد نفسه إلى ما كان قبل الإمارة وفي غياهب الأسر، مستدركا لذاته الجديدة وموغلا في القراءة والكتابة والتدريس ؛ فأضحى مقامه محجا للزائرين من أهل العلم من المغرب والمشرق، فألف خلال إقامته في بروسة كتابه "**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**" وقدمه إلى المجمع العلمي الفرنسي في باريس بعد أن انتهى منه. ويقول أبو القاسم سعد الله عن هذا الكتاب "أما إنتاجه الآخر فتغلب عليه روح النقل، فكتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" مليء بالنقل الحرفي من "إحياء علوم الدين للغزالي." غير أن رابح بونار يرى أن رسالة الأمير هذه" هي قبسة فكر يحاول الأمير أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصه من أبحاث الإمام الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم، وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب النثري بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية واهتمام" (محمد عبد القادر الجزائري، 1964، ص. 64 ؛ بركات، 2013. ص. 25 ؛ شرشار، 2011، ص. 19 وتشرشل، 1974).

تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية بقلم غوستاف دوغا وصدرت هذه الترجمة لأول مرة سنة 1858م، حيث اكتشف من خلالها القارئ الفرنسي مفكرا عربيا أصيلا، تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق، من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي، منتهيا إلى أن الديانات الثلاث

تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية، بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب. ويقدم المترجم في بعض الأحيان أوجه الشبه بين ما ذكره الأمير في كتابه وما يذكره بعض الفلاسفة الفرنسيين المحدثين في عصره، ويعبر المقطع الآتي عن هذه الفكرة بجلاء : " يتحدث عبد القادر كفقهاء السوربون، فهو في انسجام تام مع فكر البابا، إنه يشبههم تماما" (شرشار، 2011، صص. 18-19).

بعد الزلازل الذي ضرب بروسة، أبدى للباب العالي رغبته في الانتقال إلى دمشق، فكتب الأخير إلى والي الشام نديم باشا لاستقباله، ويصل الأمير إلى بيروت على متن باخرة فرنسية ومعه مئتا نفس، فهرعت بيروت وأهاليها لاستقباله وعلى رأسهم والي بيروت نامق باشا، واحتفلوا به احتفالا عظيما مع أمراء آل أرسلان حكام الدروز في جبل لبنان، ونزل الأمير ضيفا على الكولونيال تشرتشل. ويمر بطريقه بعد إصرار أهل الجبل "الدروز" أن ينزل ضيفا عليهم وهنا نجد عبارة يقولها الأمير تنم عن فكر منفتح فهو يقول في وداعهم : "هدانا الله أن نظل متحدين". ثم يصل الأمير إلى دمشق ويستقبله واليها محمود نديم باشا وعزت باشا رئيس العسكرية والأعيان والأشراف، ثم يصل إلى دمر ثم الصالحية، وينزل عند ضريح الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، ثم توجه إلى المحل المعد لنزوله بدار عزت باشا. دخل دمشق دخول الفاتحين العظام، وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى. وقيل أنه لم يدخل دمشق عربي بهذا الترحيب منذ صلاح الدين الأيوبي (تشرشل، 1974 ؛ محمد عبد القادر الجزائري، 1964 وعبد القادر الجزائري، 2004).

فقد شكل قدوم الأمير إلى دمشق نقطة تحول كبرى في ذات الأمير ؛ فصورته هي التي سبقته : المجاهد العظيم سليل الدوحة المحمدية، والعالم الزاهد. فيدخل من باب واسع في التعرف على المدينة وعلى أهلها وطبقاتهم. فكان الدرس والتدريس طريقه، فتغص حلقات درسه بالطلبة الذين أبهرهم علمه وطريقته التي جمعت الموروث بالحديث، الأصول والعقيدة بالفلسفة مما جعله محط النظر في الجانبين الإيجابي والسلبي ؛ فقد كثر حوله الحسد والريبة من قبل السلطة ومن قبل علماء قل زائرهم (تشرشل، 1974، ص. 277).

فتنة دمشق 1860م

تعود جذور الفتنة وهو مصطلح مخفف للمجزرة أو المذبحة إلى عوامل داخلية وخارجية ؛ تداخل فيها التاريخ بالجغرافيا ؛ تداخل فيها الموروث الديني المتشدد مع

الحداثة، تداخلت فيها القوى المحلية من أعيان وتجار وأغوات مع تدخل القناصل الأجانب ودولهم الكبرى. هنا الباحث لا يحاول تفسيرا لما جرى ؛ ولكن الصورة الباقية لابد أن تطرح ذاتها في سياق فهم سلوك الأمير الواعي للدور الذي قام به خلال تلك المرحلة.

كان لسياسات الدولة العثمانية بإصدار المراسيم "القوانين" مابين 1839-1856م وهي خط شريف كلخانة 1839م، وخط التنظيمات الخيرية 1856م، والتي جاءت تحت ضغط الدول الأوروبية أو ما عرف تاريخيا بالامتيازات الأجنبية وتدخل القناصل الأجانب في سياسات الدولة الداخلية. محاولة منها لاسترضائها في جانب كبير منها، والتي أكدت في مجملها على مبدأ المساواة مابين رعايا الدولة العثمانية، بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللغة، وتأكيد الامتيازات للطوائف غير الإسلامية، والتأكيد على الحرية الدينية لكل مذهب، والسماح بملكية الأجنبي، وإنشاء المحاكم المختلطة وحق الرعايا الأجانب بالتقاضي أمام محاكمهم في القنصليات أو دولهم (عوض، 1969).

ومن جانب آخر كان لحكم محمد علي باشا وسياسة التحديث التي قام بها في سوريا مابين 1833-1840م، وعمله على تكريس المساواة ما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف، واعتماده بدرجة كبيرة وبخاصة في لبنان على العرب المسيحيين دور فيما بعد في زيادة حدة الانقسام، وظهور طبقات سياسية جديدة وبخاصة بعد خروج الحكم المصري؛ فالصدمات الدموية التي ظهرت في لبنان وآلية تعاطي الدولة العثمانية معها كانت تشير إلى التهجير القسري للسكان من منطقة إلى أخرى، الأمر الذي تبلور بنظام القائم مقاميتين 1843م الذي اعتمد بموافقة عثمانية فرنسية وإنجليزية تميز بطابع الحقد والاستعداد للقتال، حتى قيل أنه تنظيم للحرب الأهلية بين سكان جبل لبنان الدروز والموارنة، ويصبح التدخل الأجنبي تحت شعار دعم هذا الطرف على حساب الطرف الآخر وهو في حقيقته خسارة لطرفي المعادلة الدروز والموارنة[4].

بدأت المجزرة في دمشق في التاسع من تموز/يوليو 1860م على العرب المسيحيين والمسحيين عموما، بعدما كانت قد بدأت في زحلة ودير القمر وجبل لبنان والبقاعين الأوسط والغربي من جهة لبنان، على مدى ثمانية أيام ارتكبت فيها حشود من رعاع دمشق

[4] مسعود ظاهر، **الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني : نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر**. صص. 461-477، من كتاب : عبد الجليل التميمي، (1988م). مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية في أثناء العهد العثماني، تونس-زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، صص. 467-468.

ومن البدو والدروز والقرويين المجاورين والعسكر والأكراد وبمعونة من اليهود، مجازر وأعمال سلب ونهب وهتك واغتصاب وحرق للبيوت والمحلات التجارية، جرت بشكل رئيسي في حي باب توما المسيحي، وتركزت أيضا على القنصليات الفرنسية والروسية والنمساوية والبلجيكية، وكذلك مباني البعثات التبشيرية، يضاف إليهم المسيحيين الذين فروا إلى دمشق من سكان جبل الدروز وجبل الشيخ والمناطق الأخرى من لبنان. وبقيت الأيام الثمانية مخيمة على مجمل المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدمشق (خوري، 1993؛ آل تقي الدين الحصني، 1979 وشيلشر، 1988).

وفي أيلول 1859م انفجر صراع دموي في المتن كانت له انعكاسات مباشرة على اندلاع الصدامات الطائفية الدموية في مختلف أرجاء لبنان. فبدأت الصدامات في 28 أيار/ 1860م واستمرت بشكل متقطع أحرقت خلالها مدينة دير القمر التي كانت أكبر تجمع ماروني في الجبل، ودخل الدروز زحلة في 19حزيران 1860م، وتم إحصاء حوالي أربعين قرية محروقة ومنهوبة في جبل لبنان حتى وصلت الصدمات إلى سهل بيروت[5].

وهناك اختلاف واضح ما بين المؤرخين حول تجدد الاضطرابات وبداياتها ومن الذي بدأ بها من الموارنة أو الدروز، وبالتالي تحديد الجهة التي تقف وراء تلك الطائفة، وكيف وصلت إلى دمشق التي لم تشهد في تاريخها مثل هذا الأمر إلا على شكل مشاجرات عادية لا علاقة لها بالدين أو الطائفة فيها ؛ فقد تقاذفت جميع الجهات الاتهامات ما بين الرأي الذي يقول بوجود مؤامرة يقف ورائها الإنجليز، وهذا ما قاله القنصل الفرنسي معتبرا زعم القنصل البريطاني بأن اندلاع أعمال الشغب لم يكن مدبرا مثيرا للشبهات. وأضاف لماذا لم تتعرض القنصلية البريطانية كباقي القنصليات للهجوم، لقد كانت هناك صلات وثيقة ما بين البريطانيين ومصطفى بك الحواصيلي الذي اضطلعت قواته شبه العسكرية بدور بارز في أعمال الشغب (شيلشر، 1988 ويوسف حسين عمر، 2014).

ومن جانب آخر يشير بعض الباحثين إلى أطماع فرنسا، وبخاصة نابليون الثالث في المنطقة ورغبته عن طريق مشروع المهندس الفرنسي ديسلبيس بشق قناة السويس، وكذلك إلى رغبة فرنسا العارمة في ضرب صناعة الحرير المتطور في دمشق، ونقلها إلى ليون أو مستعمراتها في الجزائر، مستشهدين على ذلك ما أصاب السوق العالمي في الصين وفرنسا وإمكانية احتكار السوريين لمثل هذه الصناعة، وبخاصة أن أغلب هذه الصناعة

[5] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص. 469.

يقع في الحي المسيحي، وهذه النهضة الصناعية كانت تتطور وتواكب آخر التطورات التقنية الصناعية العالمية في ذلك الوقت، أيّ نظام الجاكار الميكانيكي الذي كان أول من أدخله إلى دمشق في خمسينات القرن التاسع عشر الصناعي حنا بولاد وأخوته المشهورون بإنتاج "حرير البولاديّة"، الأمر الذي توجّب تدميره بأية صورة كانت (بولاد، 2003 ؛ شيلشر، 1988).

أما الجانب المحلي الذي كان له دور في الفتنة فيرجعه البعض إلى أعداء حركة الإصلاح داخل الدولة العثمانية ورغبتهم في إحكام القبضة الرجعية على آليات حركة الإصلاح، والعودة للوراء، هذا إذا أخذنا بالحسبان أن عددا من أعيان دمشق المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة ديون طائلة للأوربيين والبيوتات المالية، وللنصارى واليهود، التي امتدت إلى الأراضي حول دمشق حتى بلغت بعض الديون على بعض القرى ما يزيد عن ثمنها في حال بيعها. وبالتالي كان التفكير في التخلص من كل ذلك عن طريق الزج بالمدينة في فتنة تصادر فيها الأموال والأملاك جر فيها العامة والرعاع والمتعطلين بسبب كساد حرفهم أمام المنتجات الأوروبية الرخيصة الثمن (عبد الله حنا، 1985 وشيلشر، 1988).

الأمير عبد القادر ومحاولات وأد الفتنة

شكا الكثيرون من وجود الأمير بين ظهرانيهم وهو الذي ما إن وصل حتى كان من طبقة الأعيان الأشراف، وكثر حوله أهل المغرب، وفي هذا يذكر الحسيبي : "وصار المذكور كل من راح إلى عنده يعطيه ورقة أنه مغربي... إلى أن صار مقدار خمسة ألف نفر الذين يقولوا نحنا مغاربة تبع السيد المذكور..." (الحسيبي، 1969). وكان الأمير خلال المرحلة تلك لازال يعمل على استقرار حاله وبخاصة أن مسؤلياته كبيرة وكثيرة، وانكب على التدريس والتأليف مبتعدا عن الحكم والحكام. ولكنه سرعان ما شغل بما يجري في لبنان من فتنة تحرق الأخضر واليابس، وهو كما رأينا أول من ينتصر للمظلوم ويسكن ألم المكلوم وينصر الملهوف. وأشار العديد من شهود العيان منهم الحسيبي، وميخائيل مشاقة وغيرهم، ومن الباحثين الذين استندوا إلى الوثائق للقنصليات على أن الأمير قد سعى وكاتب من أجل وقف فتنة لبنان (مشاقة، 1908 والحسيبي، 1969 وشيلشر، 1988)، وفي هذا يذكر الشيخ البيطار : "... غير أن سعادة الأمير المعظم، والكبير المفخم قد بذل كامل همته في ذلك... (البيطار، 1993، ص. 264)" أما ميخائيل مشاقة فيذكر :

"قنط النصارى من النجاة من مخالب الحكومة وشراسة الأتراك وحقد المسلمين... ولكن قدر لهم أن يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم ويرثي لمصابهم. وهذا الشهم الذي نعنيه هو الأمير عبد القادر... وكان لايترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم، واجتمع بالوالي مرات وبأعيان المدينة ووجوه قراها وحظهم على السكينة والإخلاد إلى السلام والإقلاع عن الثورة وترك النصارى وشأنهم، وقد بين لهم وخامة العواقب التي تسقط على رؤوسهم إذا عملوا على الفتك بهم وكيف تخرج البلاد من أيديهم، وأظهر لهم عدم جواز قتل المسحيين شرعا ودينا، وأفرغ قصارى جهده في إرجاعهم إلى الهدى والصواب ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعود بإجابة طلبه... ." (مشاقة، 1908، ص. 174)

ضمن هذه الهمة والغيرة على دينه، وإدراكا للدور الذي يقوم به رجل شريف، فهو -نستشف من النص السابق- يدرك أبعاد المسألة وخوفه على البلاد من المتربصين بها من الأعداء. فهو ما كان عالما بنوايا أحمد باشا الوالي في دمشق، فكتب إلى أصدقائه من الدروز داعيا أن يكونوا رحماء معتدلين متحملين لمسؤوليتهم تجاه أتباعهم ؛ فتظهر خبرته وتجربته أثناء تعاطيه مع القبائل التي كانت تخرج عليه. ففي أيار/مايو كتب رسالة إلى شيوخ الدروز في جبل لبنان وفي سهول وجبال حوران :

"إننا دائما ندعوا لكم بالسعادة الدائمة والهناء المستمر... فأصغوا إلى ما نقوله لكم واقبلوه واعتبروا بنصيحتنا إليكم. إن الحكومة التركية وكل الناس يعرفون عداوتكم القديمة نحو مسيحي جبل لبنان، وقد تتصورون بأن الحكومة لن تحملكم كل مسؤولية الحرب التي تدور الآن بينكم وبينهم. وقد تقبل الحكومة عذركم. ولكنكم إذا قمتم بهجوم على مكان لم يكن سكانه في يوم من الأيام أعداء لكم فإننا نخشى أن يكون هذا التصرف سببا في قطيعة خطيرة بينكم وبين الحكومة... الحكيم هو الذي يقرأ العواقب قبل أن يخطو خطوة في الطريق... ." (تشرشل، 1974، ص. 282)

كان الأمير كمن يسابق الزمن فمع قدوم أخبار حرق زحلة ودير القمر "ازداد مرض قلوب سفهاء دمشق فبعثوا إلى الدروز يغرونهم على نصارى بلدتهم، ويعدونهم بمساعدتهم، ويرغبونهم في أموالهم، فوعدوهم بالإجابة بعد فراغهم من الجبل... ضاق صدر الأمير من الأخبار التي وصلته فخرج إلى القوم خارج الأسوار، فتكلم معهم بما أثر فيهم، وجعلهم

يذعنون لنصائحه، وواعدوه بأنهم لا يحركون في دمشق ساكنا ولا يثيرون فتنة ... " (محمد ابن الأمير عبد القادر، 1964، ص. 93).

لجأ الأمير عبد القادر إلى والي دمشق وعبر له عن مخاوفه، فأكد له بأن ليس هناك ما يدعو للخوف، وكل الأخبار لم تكن سوى محض إشاعات. فكرر الأمير ذلك ثانية وثالثة، ولكن دون جدوى. فما كان من الأمير إلاّ أن بدأ بالاستعداد لتجهيز المغاربة، فشكل قوة تقرب من الألف خيال لعلمه بخطورة الموقف وأن ما سعى إلى تجنبه لابد أنه واقع (تشرشل، 1974، ص. 283). كان يوم السابع والثامن كما يذكر ميخائيل مشاقة قد تكلل ببث الطمأنينة بنفوس الناس نتيجة جهود الأمير، وأصدرت الحكومة أمرا للكتاب بالعودة إلى أشغالهم، وتهللت وجوه النصارى وتفاءلوا من هذه الهدنة. وخرج أصحاب الأعمال إلى أشغالهم وعادت الحركة التجارية (مشاقة، 1908).

دورالأميرفي حماية المسيحيين أثناء الفتنة

في يوم التاسع من تموز 1860م، هرع المغاربة إلى عبد القادر وأنفاسهم تتقطع وأخبروه بأن المدينة قد قامت فقال : "هذا ما كنا نحاذره ونحذر الناس منه قد وقع إنا لله وإنا إليه راجعون". ودون أن يضيع وقتا خرج في اتجاه المدينة وأمر قواته باتباعه إلى محلة النصارى. وفي الطريق وجد جماعة من الغوغاء مع عدد كبير من الدروز، فأغلق الطريق أمامهم وخطب فيهم وعاتبهم، وسعى إلى إقناعهم ببشاعة الجريمة التي هم مقدمون عليها" ... لكنهم صرخوا قائلين "ماذا! أنت الذي كنت أعظم ذباح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في مدينتنا ؟ ابتعد عنا ! ... فصرخ هو فيهم : إذا كنت قد ذبحت المسيحيين فإن ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا، وهم المسيحيون الذين أعلنوا علي الحرب، والذين كانوا مدججين بالسلاح ضد ديننا..."(تشرشل، 1974، ص. 283 ؛ محمد ابن الأمير عبد القادر، 1964، ص. 93). وفي دير العازرية احتمى عدد من النصارى مع الرهبان ودافعوا عن أنفسهم عدة ساعات حتى جاءهم المدد من الأمير، فقام بإجلائهم إلى بيته تاركا الدير وما فيه لأن همه كان حفظ حياة البشر (مشاقة، 1908).

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع مع أحمد باشا وأعضاء مجلس الشورى وسألهم المساعدة على إطفاء شرارة الفتنة، وبين لهم براهين دمها بآيات القرآن الكريم، والتي توجب على الحاكم بمقاتلة الهائجين والثوار ولو كانوا من أهل الشريعة. فنجح الأمير باستصدار فتوى من مفتي الولاية على ضرورة مقاتلة الثوار وحماية النصارى. فما مر بعض الوقت حتى جاء

رسول أحمد باشا يخبره أن الباشا عدل عن اتفاقه. فما كان من الأمير إلا وعقد العزم ورفع الهمم على أن يسعى بأقصى طاقة على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح البريئة (مشاقة، 1908).

ويذكر شاهد عيان على المذبحة دور الأمير فيقول : "ولولا رجال الفضل، وأهل الصلاح، وأصحاب المروءة كالأمير الخطير الذي شاع صيته في الآفاق ... الذي كان يطوف المدينة ليلا نهارا برجاله المغاربة الشجعان ويناديهم : يا أمة الإسلام إن ذلك لا يجوز في شرع ديننا. اعدلوا يا أمة محمد..." (أفندي عربيلي، 1913). بعد يأس الأمير من عدم الاستجابة له أمر الرجال المغاربة بالسعي في الأحياء، وإحضار من يستطيعون إلى داره، حتى غصت كل دُوره بالنصارى، فكان الأمير بذلك القدوة لبعض الأعيان الذين صاروا يتبارون فيما بينهم، الشيخ سليم العطار وصالح اغاشور وعمر آغا العابد وغيرهم. وكان أمره إلى الرجال بالصياح بالناس، وخاصة في المناطق التي كان يختبأ بها المذعورون قائلين : "أيها المسيحيون، تعالوا لا تخشوا منا، إننا رجال عبد القادر، وإننا هنا لإنقاذكم! تعالوا، تعالوا" (تشرشل، 1974، ص .283 ؛ مشاقة، 1908، ص. 176). وفي اليوم الثالث على المذبحة خرج الرعاع ومعهم القطاع ونشروا أوامرهم في أنحاء المدينة، أنه على كل من يأوي النصارى في بيته ويقدم لهم المساعدة أن يتوقف ويسلمهم إليهم ليفتكوا بهم، وإن خالف فسيهاجمون بيته ويبطشون فيه وبأهله، ويحرقون بيته وينهبون ما فيه. فخارت قوى البعض وخافوا على حياتهم ولم يروا بدا من التسليم (مشاقة، 1908).

وفي نفس اليوم ثار أهل محلة الصلاحية مع أكرادها فهجموا على بيت الأمير عبد القادر يطلبون إليه أن يكف عن حماية الكفار، وألحو عليه أن يسلمهم جميع النصارى الذين في بيته. فخرج الأمير عليهم برجاله وقال :

> "إنكم ستندمون حيث لا ينفعكم الندم. إني أنصح لكم أن ترجعوا عن غوايتكم وتعودوا إلى بيوتكم، وأن تسمعوا نصيحتي. أرى نفسي مضطرا لأن أريكم العجائب والغرائب. فلا أوقفكم على قباحتكم هذه وليس عندي سوى النزال والكفاح أنا ورجالي المستعدين أن يحاربوكم ويثبتوا معي إلى النهاية حتى تهرق آخر نقطة من دمائنا على شفرات السيوف...قال هذا واستل سيفه وصاح فيهم خسئتم يا قوم أذهبوا أيها الأنذال ... هذا يكون جزاؤكم من الأمير... واعدلوا عن جهالتكم." (أفندي عربيلي، 1913، ص. 352)

وعطفا على هذه الرواية يذكر تشرشل أنه لما اجتمعت الغوغاء في بابه تريد البطش بمن عنده من النصارى، استل سيفه في الحال وخرج برفقة عدد كبير من رجاله وقال لهم : "أيها الملعونون ! هل بهذه الطريقة تشرفون النبي ؟ صب الله لعنته عليكم ! عار عليكم عارا!... إنني لن أسلم لكم مسيحيا واحدا. إنهم أخوتي. فتقهقروا وإلا أمرت رجالي بإطلاق النار..." (تشرشل، 1974، ص. 285).

صارت بيوت الأمير والبيوت المجاورة له تغص بالآلاف الفارين من الموت، فطلب الأمير من أحمد باشا أن يسمح له بأن يرسلهم إلى القلعة، ولكن صراخ النساء والأطفال عند ذلك علا المكان : "نتوسل إليك بالله يا عبد القادر أن لا ترسلنا إلى الأتراك..." فتعهد لهم بالأمن وعرض أن يذهب شخصيا إلى القلعة، وقال إنّه ما دام حيا لن تمس شعرة من رؤوسهم. فلما أوصلهم الأمير بنفسه نظر له الأتراك بنظرة شزر وتهكم، وفي الطريق كان النصارى يقولون : "لا تتركونا تحت رحمة الترك! عودوا إلينا...". وعندما غصت القلعة بهم تقرر فصل الرجال عن النساء. فظن الجميع أن لحظة الموت قد جاءت حيث كان الدروز يتهيئون لذلك. إلاّ أن العناية الإلهية تمنع مجزرة محققة، فقد علم عبد القادر فخرج للدروز فحاورهم وأقنعهم ونجح في ذلك (تشرشل، 1974، ص. 285).

كان الأمير خلال أيام الفتنة (7-10) التي تعددت الروايات حول عددها لا ينام إلا والسلاح بيده، فقد كان يشعر بمسؤوليته الشخصية عن كل فرد فيهم صغيرا كان أم كبيرا، افترش على مدخل باب بيته حصيرا خشنا ولازمه، ليعطي المنكوبين شعورا بالأمان، وكان يوزع الأرزاق، ويوزع الفرق والرجال على الحارات، ويتفقد نوبات الحراسة، ويحرص على تأمين من أراد الخروج إلى بيروت بنفسه. ما فرّق بين أصحاب المناصب والرتب والعامة في منح الأمان ؛ ولكنه كان يحفظ للناس مقاماتهم في المعاملة، فداره غصت بموظفي القناصل على اختلاف دولهم ما عدا القنصل البريطاني الذي طلب من باشا المدينة توفير الحماية له فأرسل له حامية تركية. وفي أحد الأيام (الأخيرة) سمع أحد الحرس الذي يتقن التركية أنهم سوف يقومون بنهب القنصلية وقتل من فيها، فما كان من القنصل إلاّ وطلب النجدة من الأمير فأرسل له سبعة عشر رجلا حلوا محل الفرقة التركية (تشرشل، 1974، ص. 285 ؛ مشاقة، 1908).

كانت هذه الحادثة الأليمة صفحة سوداء في تاريخ دمشق ؛ صفحة بيضاء في تاريخ عبد القادر الناصع. ومن جانب آخر كانت هذه الحادثة فرصة تاريخية للدولة العثمانية

في إحكام قبضتها. فقد لحق فؤاد باشا وزير الخارجية الإصلاحي الذي نجح في فرض تسوية مؤقتة في جبل لبنان بالوالي العثماني الجديد مدعوما بأربعة آلاف جندي. حيث سعى لتفادي التدخل الفرنسي باسم المسيحية الشرقية، فشكل حكومة عرفية، وألقى القبض على ألوف من أهل دمشق وعلى كل من وجه له الاتهام من قريب أو بعيد بما حدث، وشكل لجنة مؤلفة من دمشقيين معروفين مسلمين ومسيحيين لتحديد التعويضات عن الخسائر التي لحقت بسكان باب توما. فصدرت الأحكام السريعة بإعدام (111) شخصا رميا بالرصاص وشنق (56) وحكم بالإشغال الشاقة على (186) وأرسل إلى المنافي والسجون حوالي ألف شخص، وأعدم أحمد باشا والي المدينة، وكانت كل هذه الإجراءات والمحاكمات قد تمت بسرعة فائقة قبل وصول الأسطول الفرنسي إلى ميناء بيروت (خوري، 1993، ص. 23 ؛ حنا، 1985، ص. 268 ؛ محمد ابن الأمير عبد القادر، 1964، صص. 94-95).

وهنا لا بد من الإشارة إلى موضوعية وعدالة الأمير في سرد الأرقام حول أعداد الضحايا دون مبالغة، ورواية الأمير حول الأحداث لابد من تسجيلها، ففي رسالة من الأمير إلى صحيفة نيويورك تايمز حول أحداث دمشق مؤرخة 18 تموز، قال الأمير : " لقد علمتم أنه في يوم الاثنين 9 تموز حوالي الساعة الثانية ظهرا اندلعت الحرب نتيجة معاقبة بعض المسلمين لتعرضهم وإساءتهم للمسيحيين، هؤلاء المسلمين هرعوا في توتر شديد مسلحين للعظم إلى القسم المسيحي من المدينة، وبدأوا القتل والحرق والنهب في آن واحد، وساعدهم في ذلك الجنود الأتراك الذين ادعوا محاولة وقف الاضطرابات ولكنهم كانوا يغذون ويشاركون المشاغبين في القتل والنهب والسلب. بعض حكماء المسلمين قاموا بمحاولة إيقاف هذه الأفعال ولكن الضباط الأتراك لم يرغبوا في إحلال السلام، بل على العكس أمروا جنودهم بملاحقة المسيحيين البائسين ودعموهم بأفواج من المجرمين من كل طائفة. وبعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد الخطير لم أدخر وقتا و جهدا لحماية هؤلاء البؤساء، وذهبت مسلحا بقوة أتباعي الجزائريين، واستطعنا أن ننقذ الأرواح من رجال ونساء و أطفال ونرجع بهم سالمين إلى بر الأمان. هذه الحالة استمرت ليومي الاثنين والثلاثاء حيث لم يتوقف المشاغبون عن القتل والحرق والتضحية بالمسيحيين، من دون إبداء أي عون من جهة الوالي لهؤلاء المسيحيين.

وفي يوم الأربعاء وفي ظل الادعاء بمقتل اثنين من المسلمين وهذا ليس بالسبب، عادت الحرب للاشتعال، ووالي دمشق عدمه ووجوده واحد، ومن جهتي فأنا أعبر عن شديد الأسف للمأساة التي حلت بالمسيحيين من حرق وتدمير لمناطقهم وبيوتهم. لا نعرف تماما عدد

القتلى ولكنهم يدورون حوالي (3300)، وكل المسيحيين و الأوربيين الذين أحتموا بمنزلي هم سالمون، أمنت لهم جميع احتياجاتهم وأدعو الله أن يحفظ وينجي المسيحيين البؤساء من هؤلاء الغلاة المتعصبين... "[6].

وأخيرا فلا بد من الإشارة إلى علاقة الأمير بالفرنسيين، والتي حاول البعض الدخول منها في ربط الأمير بتنفيذ أجندة فرنسية في بلاد الشام، فقد قالوا بأن القوة التي شكلها الأمير كانت بدعم نابليون الثالث صديق الأمير الذي أغدق عليه الأموال (تشرشل، 2014، صص. 120-121) ؛ ورأينا أن هذه القوة ما كانت لتكون لولا الأحداث التي جرت والتي يضعها-القوة- الأمير في خدمة الدولة العثمانية فيما بعد. كما أن من قام بدراسة موقف بريطانيا اعتمادا على الأرشيف البريطاني لم يشر إلى أي صلة من قريب أو بعيد للأمير بفرنسا[7]. فتدخل الأمير بالشأن الدمشقي فرضته الأحداث ولم يسعى له الأمير. فهو كما أشرنا سابقا ترك الإمارة السياسية إلى إمارة القلم. وفي هذا السياق يورد الأمير محمد في تحفة الزائر عن اتصال الأمير الوالد بالفرنسيين قوله : "وفي أثناء وجود العساكر الفرنساوية في بيروت حصل اختلاف بين فؤاد باشا والجنرال الفرنساوي فبعث الجنرال رسولا مخصوصا للأمير يخبره بأنه اعتمد على ضرب دمشق من الصالحية فليخرج بأهله ومتعلقاته منها. فاغتم الأمير لذلك وبعث للجنرال بأن يوافيه بالبقاع، وعين له قرية قب الياس محلا للاجتماع. فاجتمع بالجنرال وأظهر له سوء عاقبة ما اعتمد عليه. فأصر الجنرال على ذلك. فهدده الأمير وعظم له الأمر حتى عدل عن ذلك ورجع كل منهما، وأسرها الأمير في نفسه وجعلها خالصة لوجه الله تعالى..." (محمد ابن الأمير عبد القادر، 1964، ص. 95).

انهالت على الأمير كتب التكريم والتمجيد لفعله الذي لاقى أصداء عالمية، فسيفه الذي أشهره بوجه فرنسا سبعة عشر عاما كان نفس سيف العدل الذي حمى به نصارى الشام، ولسانه الذي كان رطبا بالذكر هو نفسه اللسان الذي كان يرعد في ساحات دمشق انتصارا للمظلومين ودفاعا عنهم ؛ وعلمه الغزير كان حجة أمام من أراد أن يشوه وجه الإسلام المتسامح. وعلاقاته واحترامه كان كله موظفا في خدمة قضيته العادلة الأولى الحرية وكرامة

[6] **رسالة الأمير عبد القادر إلى النيويرك تايمز**، نقلا عن العطار صهيب، معهد الوارف للدراسات الإنسانية. الكترونية: Consulté le http: //www. alwaref. org

[7] لمزيد من المعلومات حول القوى الدولية والصراع على سوريا في سنة 1860 ينظر : يوسف حسين عمر، **سياسة بريطانيا تجاه الأزمة السورية 1860م**. مرجع سابق.

بني البشر. فهاهو السلطان العثماني ينعم على الأمير بالنيشان المجيدي العالي الشان بفرمان صورته : " قد أحاط علمي الشريف السلطاني بحال الحمية الدينية الثابتة في أصل فطرة الأمير... قد اضطره إخلاصه لاستعمال الهمة والغيرة في تخليص عدد كثير من تبعية دولتي العلية الواقعين بأيدي الأشقياء الظالمين عند وقع الفتنة والعناد مؤخرا في الشام، من بعض ذوي التوحش الجاهلين بالوظائف العلية الإسلامية والأحكام الجليلة الشرعية ... ولأجل... خدمته الخيرية الواقعة أحسنت إليه بنيشاني المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى..." (محمد ابن الأمير عبد القادر، 1964، ص. 96). وكذلك فعل الصدر الأعظم.

وكتب وزير خارجية فرنسا يخبره بأن الإمبراطور يشعر بداعٍ ذاتي يدعوه إلى أن يخبركم عن فرحه الشديد بإجراء ما أجريتموه، وأنا أرجوكم قبول التهاني الشخصية. ثم حضر كبير المترجمين في الحكومة الفرنسية مبعوثاً من الإمبراطور وقدم إلى الأمير نيشان "الليجون دونور" المرصع من الرتبة الأولى. وأرسل فلهيلم الرابع ملك بروسيا نيشان "صليب النسر الأحمر" من الطبقة الأولى مع ختمه الملوكي. وكذلك أرسل اسكندر الثاني قيصر روسيا نيشان "النسر الأبيض" أعظم نياشين القيصرية مشيداً بشهامته، مؤكداً محبته له. وأرسل ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل رسالة مطولة امتدح فيها محبة الحرية واعتبره في عداد المقاتلين لاستقلال الشعوب، وأرسل مع اثنين من ضباطه "نيشان موريس واليعازر" أقدم نياشين الفروسية. وأرسل قنصل إنكلترا في دمشق برسالة تقدير وشهادة مستفيضة إلى الأمير. وبعدها بعثت الملكةُ بندقيةً كتب على ظهر صندوقها : "من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة إلى صاحب السمو... تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة 1860"[8].

بيبليوغرافيا

بركات، محمد مراد (2013). **الأمير عبد القادر الجزائري : المجاهد الصوفي**. القاهرة : دار النشر الالكتروني، د. ت)، صص. 24-25، محمد عبد القادر الجزائري، (1964). ص. 40.

بولاد توفيق، يوسف (2003م). **تاريخ الفنون والصناعات الدمشقية**. (ط. 1). (بولاد الياس، ت.). دمشق : مطابع ألف باء الأديب، ص. 105، شيلشر، مرجع سابق، صص. 116-117.

[8] لمزيد من المعلومات ينظر : المصدر نفسه تحت عنوان "**ذكر ما ورد على حضرته من مكاتيب الدول ونياشينها وما قدمه الشعراء إلى أعتابه من قصائد المدح والتهنئة** " صص. 99. وما بعدها.

البيطار، عبد الرزاق (1993م). **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**. (ط. 2). بيروت : دار صادر، ص. 264.

تشرشل، شارل هنري (1982). **حياة الأمير عبد القادر**. (أبو القاسم سعد الله ت. وتق.). (ط. 2). الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، صص. 276-277 ومحمد عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر**. (ج 2.). صص. 66-67 ؛ عبد القادر الجزائري، (2004م)، **المواقف الروحية والفيوضات السبوحية**. (ط. 1). الحسيني القادري عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني القادري، جزآن، بيروت : دار الكتب العلمية، ص.11.

حنا، عبد الله (1985م). **حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: نموذج المدن في ظل الإقطاعية الشرقية**. (ط. 1). بيروت : دار ابن خلدون، صص. 255-260، شلشر، مرجع سابق، ص. 120.

خوري، فيليب (1993م). **أعيان المدن والقومية العربية : سياسة دمشق 1860-1920م.** (ط.1). (الرزاز عفيف، ت.). بيروت : مؤسسة الابحاث العربية، ص. 23، أديب آل تقي الدين الحصني، محمد أديب (1979م). **منتخبات التواريخ لدمشق**. (الصليبي كمال، تق.). (2.ج)، (ط.1). بيروت : دار الآفاق الجديدة، ج1، صص. 265-266.، شيلشر، ليندا (1988م). **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. (ط. 1). (الملاح عمر والملاح دينا، ت.). دمشق : دار الجمهورية، ص. 111.

ديلو، ستيفن (2003م). **التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني**. (ربيع وهبة، ت.). القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، صص. 91-92.

الزغبي، أمجد (2010م)، **التاريخ السياسي والاقتصادي لألمانيا : دراسة في تجربة الوحدة الألمانية من خلال برلمان فرانكفورت 1848-1849م**. عمان : مديرية الثقافة –أمانة عمان، ص. 138.

عبد القادر الجزائري محمد (1964م). **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**. (ط. 2). (حقي ممدوح، تحق.). بيروت : دار اليقظة، (ج 2). ص. 64.

عوض، عبد العزيز (1969م)، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م**، (ط .1). القاهرة : دار المعارف، صص. 20-28.

كناش، محمد ابو السعود الحسيبي (1969). **لمحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات**. ص.197.، شيلشر، مرجع سابق، صص. 120-121. ص. 175.

محمد عبد القادر الجزائري (1964م). **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**. (ط. 2). (ممدوح حقي، تحق.). بيروت : دار اليقظة، ص. 93 ؛ تشرشل، شارل هنري. (1982م). (سعد الله أبو القاسم، ت. تق.). الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 41.

مشاقة، ميخائيل (1908م). **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**. (ط. 1). القاهرة : مطبعة مصر، صص. (413-416، 175، 176 -177، 178-180).

الوزير، محمد السيد (1984م). **الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته و أثرها في أدبه**. الرياض : مكتبة الملك فيصل الإسلامية، صص. 22-23، تشرشل، شارل هنري (1974م). **حياة الأمير عبد القادر**، (سعد الله أبو القاسم، ت. تحق.). تونس : الدار التونسية للنشر، صص. 40-42.

المجلات العلمية

بشرى خير بك، دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضاتها : "تحفة الزائر ومآثر عبد القادر وأخبار الجزائر " أنموذجا للدراسة، **مجلة دراسات تاريخية**– العددان ١١٨ - ١١٧كانون الثاني-حزيران لعام ٢٠١٢.

شرشار، عبد القادر (2011). شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر. (ترجمة أشهر مؤلفات الأمير عبد القدر من قبل الباحث الفرنسي جوستاف دوجا)، **إنسانيات : المجلة الجزائرية في الأنثربولوجيا والعلوم الاجتماعية**، (54)، 19.

تشرشل، (1974). ص. 116، حسين عمر يوسف (2014، حزيران). سياسة بريطانيا تجاه الأزمة السورية 1860م. **مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات**، (33)، 230-240.

عربيلي، إبراهيم أفندي (1913م، آذار). (شاهد عيان) مذبحة سنة 1860م في دمشق. **مجلة الكلمة**، نيويورك، (3)، السنة التاسعة، ص. 156. (6)، ص. 352.

كناش، محمد ابو السعود الحسيبي (1969). لمحات من تاريخ دمشق في عهد التنظيمات. (ج.1). (ج. 2). (سليمان الصليبي، تحق). **مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية في بيروت**، السنة 22.